نـافـذة

عداوة الإنسان

القانون هو الأساس، وقراءته في تفاصيله هي الطريقة المثلى، فما أدرانا بعدد كبير من المسؤولين الذين يدعون العلمانية، والذين يدّعون الخوف من الله على السواء وهم يخاصمون القانون ويغيّبونه وفي أحسن الأحوال يلجؤون إلى قراءته وفق مصالحهم وارتباطاتهم؟! أما عن الذين يدّعون الخوف من الله فهم الأخطر لأنهم يحكمون باسم الإله الذي شكلوه على هواهم، وهم أكثر قدرة على فعل ما يشاؤون، ويكتسبون البراءة، لأن الفاعل هو الله، وهو القضاء والقدر!!

تسأل عن حقك، فيقول لك أحدهم: القانون.. أنا رأيت تطبيقه بهذا الشكل! عجيب ذلك المسؤول الذي يتعامل مع القانون كعصا الراعي التي يهش بها على غنمه! الناس عنده غنم لا أكثر، والقانون حسب قراءته هو العصا! وقد لا يكون له علاقة بشيء، وكل مسؤول يقوم باختيار شخص كاره للناس، حاقد عليهم، ويوليه أمر الشؤون القانونية، وغالباً ما يتلقى هذا إشارة المسؤول ليكون قادراً على الظلم لصاحب الحق، ففتاواه القانونية تستبيح الوطن ساعة تشاء، وتجيز المخدرات وما شابه، وتجعل الغبي أديسون، وفتاواه قادرة على إنهاء أي ظاهرة إيجابية، يتأبط ملفاته القانونية تحت إبطه، ويدخل على سيده ليخبره بإنجاز المهمة، وبعد مدة بسيطة يتحول هذا المفتي القانوني إلى السيد الأول، لأنه أجاز للسيد المسؤول ما لا يجوز، ومنع ما لا يمكن منعه..!

ويتغير المدير أو الوزير، ويبقى هذا القانوني مكانه بشكل مؤبد ليتابع حرق الوطن وطاقاته..!

اليوم أيها السادة وبعد ثماني سنوات من الحرب، ما يزال هؤلاء يتربعون على مفاصل الدولة وفي كل مكان، في الخطير منها، وفي الأكثر خطورة التي لا نراها وقد لا تصل إلى مسامعنا..!

هل تعلمون بأن عدداً منهم لا يزال يتصرف كما لو أنّ الوطن ملكية شخصية له، ولا يمكن أن يفعل إلا ما يناسب مصلحته، ولو كان ذلك مضراً بالوطن ومصلحته؟

هل تعلمون أن سورية بعد الحرب، وبعد كل ما تعرض له المواطن المتمسك بالبقاء يعملون على إهانته واذلاله ومحاولة تطفيشه، وهم لا يعلمون أن من لم تستطع القذائف، ولم يتمكن القتل من إبعاده، فإنه لن يغادر، وأن من آمن بمشروع التحديث الذي أطلق عام ٢٠٠٠م ما يزال مؤمناً بالمشروع ومطلقه ومتابعه منذ ذلك الوقت!

عجيب أمر هؤلاء الحيتان حتى على صعيد الثقافة والأدب والفكر والتعليم والقضاء وما يتبع، يحاولون أن يوجهوا نقدهم إلى جهات أخرى، وهم الأكثر خطراً وعبثاً بحياة سورية وبمشروع التطوير والتحديث الذي يحتاج جهد كل مواطن يملك القدرة والطاقة! لم أكن لأتخيل في يوم أن يكون الأكاديمي والتربوي والمثقف تاجراً وحاقداً وكارهاً، وكأنه يملك دكانة ورثها ويفعل بها ما يشاء وبجرة قلم مزخرفة بتوقيع مشوه يدل على غاياته ومراميه.

أيها السادة الجيش العربي السوري منح الدم ليحيا السوريون، وأصبح جيشاً احترافياً مقاتلاً خلال هذه السنوات، وتمكن من تحقيق انتصار مذهل على المستوى العالمي، ولكن جيش الفساد والأنانية والتدمير في الداخل أكثر قدرة على تدمير كل ما حققته القيادة السياسية، وما حققه الجيش العربي السوري الوطني الذي لم يبخل بشيء.

لست أدري تلك العجينة التي يصنع منها المسؤولون التنفيذيون عندنا، فهم نبلاء وجيدون وماهرون ومنتقدون، ويأمل المواطن منهم الخير والإنجاز، ولكن ما أن يصل أحدهم إلى مكانة حتى يتحول إلى خصم للمواطن، بل يتحول إلى خصم للمبادئ التي انطلق بها ونادى.

يتحول الناس إلى خصوم ودواعش، وهو وحده العارف القادر الحريص، ومعه حق لأنه وحده يملك التوقيع، ووحده الذي يقول: هكذا أريد! وحده يمارس التضليل والتدليس على الجميع بحجة القانون، يستغل خصوصيته ومكانه، وأن الآخرين لا يعرفون تفاصيله، فيعمد إلى التحجج بالقانون يقنع ويحرج ويتملص ويفعل ما يشاء، فهو القادر والفاهم! ولا يدرك هذا أو ذاك أنه عابر في أي مكان، وأن ما يقوم به سينعكس عليه لأن أي إضرار بالوطن إضرار بالجميع، هذا إلا إذا كان هذا المسؤول قد جهز نفسه مسبقاً وأرسل أمواله ليحيا خارج الحدود، أو ليتربع مؤسسة خاصة ويكون شريكاً بها بعد أن أدى خدماته كاملة لها على حساب مؤسسات الدولة! هل أعدد أسماء الوزراء والمديرين وأكثر من ذلك وأقل، الذين تسلّموا مواقع مهمة خاصة بعد انتهاء مهامهم، ناهيك عن الذين انتقلوا بصورة عكسية؟

أي نقد لهم هو نقد للوطن! وأي موقف عداء للوطن! فهم الوطن! مسكين أيها الوطن الجميل والنبيل على ما يفعلونه بك، وكأنه لا يكفيك عدوان الخارج، وعدوان أبنائك الذين في الخارج بعد أن وضعوا خيراتك في جيوبهم كما يفعل كثيرون ممن هم في الداخل اليوم!

يحاول كثيرون أن يدافعوا، ويقولون: إن العناصر الأجنبية هي من فعلت بسورية ما فعلت، هذا صحيح، ولا شك في وجود عناصر خارجية متطرفة، لكن الذي لا شك فيه أن السوريين الذين شاركوا أكثر وأخطر، فكل الذين يتشدقون على الشاشات سوريون، بل سوريون كانوا جزءاً فاعلاً في السلطة، وهم يقولون ذلك، ويدعون إلى حرق سورية ليدخلوا على أشلاء السوريين، يريدون أن يكونوا مسؤولين متحكمين بأي سبب.. أما العنصر الخارجي فيقاتل ويقتل ويذبح، لكنه يموت أو يغادر.. السوريون في جزء مهم هم المسؤولون عما جرى لسورية، فقد رأينا حالات كثيرة وليست عديدة لسوريين في الداخل أكثر خطورة، سواء كانت مقاتلة أو كانت في مواقع المسؤولية، وكم من مسؤول غادر بعد أن أسهم في تدمير سورية..؟! وكم من مسؤول ما يزال فعله على الأرض، ويمارس ما عجزت عنه السنوات الطويلة؟!

سمعت من كثيرين مقولات خطرة، لكن تحتاج إلى تدبر، ومنها ما يقول: غداً سيأتي بعض ممن سفك الدم السوري ليصبح سيداً علينا، وعندما تناقشه يقول لك، وهناك في الداخل من أسهم بالسفك والقتل، وسيتربع هو الآخر لنصبح بين نارين لقاتلين قتلا الشعب السوري، وهما معاً سيعملان على محاولات إجهاض مشروع الإصلاح الذي توقف بسبب الحرب! وعندما تستنكر ما يطرحه يقول لك: لا تخف فكل جانب لديه رجال من عند الله كلفهم بنا، ولكل رجال دين يدعمونه ويحتضنونه ويحافظون عليه في مكانته، وإذا انتقل فإنه سيصبح في موقع أفضل!

الأمل معقود على سورية ومشروعها الإصلاحي النهضوي، ومطلق المشروع السيد الرئيس، ولن يتمكن هؤلاء من إجهاض هذا المشروع، قد تتبعثر الأمور، قد تتأخر، قد يظلم شخص، قد يسرق سارق، قد يفسد فاسد، قد يغتصب مغتصب، لكن الأمل والرجال بالعمل والجد هو الذي يرسم معالم الغد القادم، وإن غداً لناظره قريب.

إسماعيل مروة

وهل سورية كفرنسا؟ الجمهورية السورية السادسة ٢٠١٢

الأنموذج النظري في البلدين هو النظام شبه الرئاسي... لكنه يختلف حسب مكونات المجتمع

سوسن صيداوي

«أما دمشق فلعلها، بشكل أو بآخر، قلب العالم النابض وليس العروبة فحسب». عبارة وردت في تقديم كتاب قامت بتأليفه دينا دخل الله، الصادر حديثاً عن الهيئة العامة السورية للكتاب، وجاء بعنوان: (وهل سورية كفرنسا؟ الجمهورية السورية السادسة ٢٠١٢... بحث سوسيوبوليتيك في الحيوية السياسية عند السوريين)، ومنه تنطلق المؤلفة التي استهواها تاريخ سورية الحديث منذ بداية القرن العشرين، محاولة إيجاد مكامن الشبه بين أم الحركة السياسية في أوروبا بداية العصر الحديث – فرنسا، وأم الحيوية السياسية في الشرق الأوسط – سورية. وبالطبع الشبه بين البلدين كان أذهلها، ومنه انطلقت بأفكارها التي تضمنها محتوى هذا الكتاب، مستعرضة أحداثا تاريخية وأشكالاً لأنظمة سياسية كان جربها كلا الشعبين – الفرنسي والسوري – فجربته سورية خلال الاحتلال (الانتداب) الفرنسي، وجربته فرنسا خلال الاحتلال الألماني. وسلطت الكاتبة الضوء على فكرة الثورات التي شهدت – الثورة الفرنسية – عصوراً من الانقلابات ومن إعادة الحكم إلى البوربين في «عصر الإعادة»، وكذلك الثورة السورية، الثورات التي شهدت تقدماً ثم تراجعاً ثم انقلاباً تماماً كما كانت الثورة الفرنسية «تأكل أبناءها».

موضحة كيف وصل الشعبان، أخيراً، إلى النظام شبه الرئاسي: فرنسا مع شارل ديغول عام ١٩٥٨ وسورية مع بشار الأسد عام ٢٠١٢. وبأن الديمقراطية ولدت في البلدين من رحم المعاناة، ومن نضج التجربة أيضاً. أفكار كثيرة ومقارنات جمعتها صفحات الكتاب الواقعة بـ٢٨٨ صفحة، في تسعة فصول.

رؤية الكتاب

شرحت الكاتبة دينا دخل الله أن همها الأول في هذا البحث، هو محاولة النفاذ إلى جوهر النظام السياسي، وإلى فقه النصوص الدستورية وروحها، وما هو أهم من ذلك إلى البيئة الاجتماعية التي تطبق فيها النصوص، محيدة – وهو أمر صعب – كل من موقفها وعواطفها جانبا، بما يقتضيه التحليل العلمي. مشيرة إلى أن المقارنة المطروحة بين سورية وفرنسا هي مقارنة جغرافية – بمعنى مقارنة نظام سياسي أكثر تجربة – والمقارنة كذلك زمنية (أي تاريخية)، بمعنى مقارنة النظام السياسي الحالي في بلد ما مع ما سبقه من أنظمة في البلد نفسه، عبر دراسة المؤلفة للتحولات السياسية في هذا البلد. وتقول في تقديمها: سأحاول فيما يأتي من فصول شرح عمليات التحول السياسي الدينامي في المجتمع السوري، مع التركيز على غنى هذا التحول والتجربة الدستورية والسياسية الحافلة التي خاضها الشعب السوري منذ الاستقلال «الاستقلال الأول١٩١٨» مروراً بالاستقلال الثاني(١٩٤٦) وصولاً إلى الدستور الجديد(٢٠١٢) الذي اقترب بالنظام السياسي السوري في جمهوريته السادسة من تطبيق المعايير الديمقراطية المعاصرة وفق أنموذج(النظام شبه الرئاسي).

الهدف من الدراسة

تقول المؤلفة إن ما يهمها ليس بحث النظام السياسي الخالص وفق النظرية والتصور المسبق، وإنما دمجه مع السوسيولوجيا في إطار السوسيوبولتيك، وذلك لسبب واحد هو أن الأنماط قد تتفق في أنموذجها الخالص بين مجتمعين، لكنها تختلف في أدائها وفقا لاختلاف الظروف بين هذين المجتمعين. وتتابع «إنّ هذه الحقيقة تفرض على علم السوسيولوجيا السياسية تجنب النمطية والشكلانية وعدم استخدام المعايير الخالصة لقياس الحالات المحددة للأنظمة السياسية... وفقاً لهذا التحليل ينبغي على العلم الاعتراف باختلاف البيئات والظروف ودرجة النمو والمعطيات الثقافية والتاريخية والجغرافيا التي تترك أثراً تعديلياً مهماً على النمط الخالص، هذا هو هدفي من الدراسة. إن الأنموذج النظري الخالص واحد في فرنسا وسورية، وهو أنموذج النظام شبه الرئاسي، لكن هذا الأنموذج يتلون في سورية عند التطبيق بألوان تختلف عن ألوانه في فرنسا بسبب الاختلافات الموضوعية في مكونات الوجود المجتمعي هنا وهناك».

في الثورة

توقفت المؤلفة دخل الله في بحثها عند مفهوم الثورة في البلدين وما ينتج عنه من إشكاليات فكرية واقعية. موضحة أن مفهوم الثورة – كما هو واضح من تجربة فرنسا وسورية – لا ينتهي عند استلام السلطة بل تبدأ بذلك مرحلة تحول طويلة لا تتحقق ثوريتها إلا عند الوصول إلى الديمقراطية. وتتابع «المشكلة أن الثوريين يعتقدون أن الثورة تتم عند استلامهم للسلطة ويعتبرون ذلك فجراً جديداً. لكن التجربة التاريخية لا تؤكد ذلك. هذا الفجر الجديد هو فجر في مشاعر الثوريين فقط وليس في الواقع. إن استلام هياكل السلطة هو مجرد نقطة مفصلية تفتح مراحل تصعيد سياسي واجتماعي تراكمي. لكن الثورة بحاجة إلى فترة طويلة من التراكم المتصاعد في مكونات الواقع المجتمعي. إن استلام السلطة ليس ثورة. إنه مجرد حدث يلغي سلطة الارستقراطية لكنه لا يلغي ارستقراطية السلطة كما يقول فوريه.

> المنهج المقارن يظهر خصوصية التاريخ السياسي وتميزّه لكل دولة

ليس المهم ما يعتقده الثوار وإنما تحولات الواقع الحقيقية. وهناك مسافة شاسعة بين رغبة الثوار واعتقادهم من جهة، وحصيلة فعلهم الحقيقية على الأرض من جهة أخرى. إن مشروعية الحدث الانقلابي – الثوري – عبر استلام السلطة هو، فقط، في أنه يفتح الباب أمام عملية تحول باتجاه الأفق الديمقراطي الذي لا يصله المجتمع إلا بعد عشرات السنين».

ما يميز سورية وفرنسا في نظامهما

في هذا الجانب قدمت الباحثة في كتابها ما يميز التاريخ السياسي لسورية وفرنسا عن غيرهما من الدول وفقا للمنهج المقارن. وتقول "لقد شهدت سورية جميع أنواع الأنظمة السياسية التي عرفها التاريخ الدولي المعاصر، الملكية المطلقة والملكية الدستورية وحكومات الانتداب والديكتاتوريات العسكرية والنظام البرلماني والرئاسي وشبه الرئاسي ونظام الديمقراطية الشعبية بقسميه (الشرعية الثورية – و الثورية الدستورية).. فرنسا أيضاً جربت أنماطا متعددة للأنظمة السياسية بدءا بالجمهورية الأولى وصولا إلى الخامسة والنظامين البرلماني وشبه الرئاسي وليس انتهاء بديكتاتورية نابليون بونابرت (تقابله بعد مئة وخمسين عاماً الديكتاتوريات العسكرية في سورية). بل إن فرنسا عاشت مثل سورية تجربة الحكومات تحت سلطة الاحتلال، والمقصود هنا حكومة فيشي أثناء الاحتلال النازي لفرنسا، ومن المدهش أن فرنسا عاشت أيضا – كسورية – تجربة الشرعية الثورية (أو الديمقراطية الشعبية) إبان «كومونة باريس» التي لم تدم سوى (٧٢) يوماً عام (١٨٧١)».

وتضيف: إن هناك فوارق موضوعية بين الحالة الفرنسية والحالة السورية، وهي فوارق تتلخص في مستوى التطور، والموقع الجغرافي، والجيوسياسي، والثقافة، والوضع الدولي (فرنسا مستعمرة بكسر الميم أما سورية فبفتح الميم)، إلا أن الحالتينَ متشابهتان في المستوى العالي لدينامية التحولات السياسية.

مقارنات وتعديلات ممكنة

هنا وتحت العنوان أعلاه أثارت الباحثة دينا دخل الله العديد من النقاط، مشيرة إلى أن هناك العديد من القضايا التي تثار مع الولوج السوري إلى عالم الديمقراطية، وأن هناك العديد من التحركات السياسية الحالية والمستقبلية سوف تضيف تعديلات على الدستور، وسوف تعمل على ملاءمة القوانين لطروحات الدستور، متطرقة إلى مقارنة في النظام شبه الرئاسي السائد الآن في البلدين، في فرنسا مع شارل ديغول/١٩٥٨/ وفي سورية مع بشار الأسد عام/٢٠١٢/ حيث تقول: «إن النصوص في الدستورين الفرنسي والسوري متشابهة استنادا إلى مبادئ النظام شبه الرئاسي.

هناك فوارق في الأحكام لكن المبادئ البنيوية في الدستورين واحدة.. يستثنى من ذلك مبدأ أساسي لم يشر إليه الدستور السوري وهو مبدأ العلمانية الذي نص عليه الدستور الفرنسي صراحة. بل إن الدستور السوري انتهك هذا المبدأ بشكل واضح في مادته الثالثة التي تفرض على رئيس الجمهورية أن يكون مسلما وترى أن الشرع الإسلامي مصدر رئيس للتشريع». خاتمة بأنه قد يتفهم بعض الناس ارتباطات سورية بالثقافة الإسلامية واعتبار المبدأ الثالث ضمن فقه الضرورة. ويؤكد آخرون أن هذا المبرر غير مقبول لأن مبدأ المساواة بين المواطنين من أهم مبادئ الديمقراطية.

ديوان «لَبْس» وجمال الشعر في محاولاته اليائسة

أحمد محمد السّح

يبدأ خضر مجر في ديوانه «لَبْس» بقصيدة عنوانها «الزاني» وينتهي بقصيدة عنوانها «مفخخات» وهذا ما يوقع القارئ لهذه المجموعة في اللبس الذي أراده خضر مجر له، عبر مجموعة شعرية متنوعة صادرة عن «دار بعل» لعام ٢٠١٦، حيث يقدم له الشاعر «جورج حاجوج» ويقول: «الشعر، شكلٌ من أشكال شق عصا الطاعة.. نوعٌ من الجنوح.. تحريك الراكد.. خلع نوافذ وأبواب موصدة لدخول الأوكسجين والهواء النظيف... هنا في «لبس»، وقبلها في مجموعته الشعرية الأولى «بدايات»، يرمي خضر مجر حصاته فوق سطح البحيرة، سعياً وراء تلك النشوة وذلك التشفّي!..» يمكن للقارئ أن يكتشف أنه أمام شاعر مثقف، متمكّن من رغبته في صقل تجربته بلغة واثقة عبر جمل شعرية طويلة، لا تعترّف بالأحرف «المفروطة» لتملأ فراغ الصفحات من دون أن تملأ رغبة القارئ وانتشاء روح الشاعر، وهو الراغب حتى في «مسامرة الظلّ»:

(لم يبقَ سواكَ.. تؤرجحك أنفاس الليل الباردة
يلاعب الضوء ظلك المنهك فوق فراش الظلام
أعباء النهار بتأملاتك وأنهت مخاض الثبات
لا يسعك الرحيل عنها متشبثة بك كدالية
أجهضت عناقيدها
تفتت خيارات النوم على رحى الوسادة
وخابت ظنون الأحلام بك
لم يبق سواك)

يحب الشاعر خضر مجر أن يحكي في الشعر الحكاية، الحكاية الخيالية التي يقول فيها للقارئ: تعال لأسرد لك عبر قصيدة من النثر ما هو يدخل في سرد النثر ويحلق بك في خيال الشعر، وهو الساعي ليبحث عن ذاته ويتعرف بها، ويعرّف القارئ إلى ما يقول، لأن توهة الشعر، هي الضياع الذي يهيم به الشعراء الحقيقيون ولا يريدون الخروج منه، ويصيبه الرعب الحقيقي من غياب القصيدة عن زياراته كما في «القصيدة تفكّ خطوبتها عني»:

(القصيدة رمت في وجهي حرفها ومضت من باب الحاضر إلى المستقبل..
مضت دوني ساحلةً دمعي على حجارة قرارها..
مضت دوني كاشفة عورة حزني للشمس..
وقد علم الجميع بأني..
«لقيط أبحث عن الضحكة التي أنجبتني»)

وهو في الجملة الأخيرة يستعير مطلع قصيدته الزاني التي يعرّف روحه فيها بلغة أقل ما يقال عنها إنها لغة شفرات الحراب، في مواجهة زقزقة العصافير، في قصيدة يمكن القول إنها قصيدة طويلة تتسق مع أغلب قصائد المجموعة التي لديها سمة الطول في الجملة الشعرية، لكنه كشاعر يتقلّد قصيدة النثر يدخل بوابة الومضة الشعرية عبر قسم خاص في المجموعة سمّاه «نصوص قيد الكلام» يجمع فيها عدداً من الومضات الشعرية التي تظهر في رأس الشاعر وتحلق بروحه ولا تكتمل لتكوّن نصاً لكنها تنفصل لتبقى نصاً بمفردها، ومضة كابتسامة العاشق، ولمعة فلاش الكاميرا:

(المدينة التي راودتها الحرب عن نفسها
تغسل رأس الفجر
بالدعاء
أصافح ظلك
لأوقظ الليل من عتمته)

تتركز في المجموعة بعض المفردات المغرقة في فصاحتها أو من الممكن أن نقول إنها جرأة من شاعر قصيدة نثر أن يكتبها، مقارنة مع محاولة السهولة أو الاستسهال التي تظهر عبر مجموعات قصيدة النثر لمستسهلي الشعر، لكن قوة خضر مجر تبرز في اختياراته وفي العناوين ومنها «مثاب، ضغيب الكلام، سكتش مائي لمقرنصات أحبك..» وهي عناوين طريفة تثير الفضول للبحث في معناها اللغوي قبل البحث في معناها الشعري، وطريقة شرح خضر لرؤيته عبر صور يشتغل على بنائها وتركيبها بشكل مختلف وكأنه بنّاء مارس مهنة الموزاييك بالكلمات ففي «مثاب»:

(الياسمينة التي فصدت جبين الشمس
فأثلمت صيفها..
تقرع نواقيس المدائن وتفر إلى حقيبتك
والأصداف التي ترمّلت عن رملها
تئن موجاً في جوف الفراغ فتعيد
السأم لوجه القمر)

تتماهى لدى خضر مجر صورة المكان مع مفردات الطبيعة هو الذي يفصّل في تضاريس دمشق، حاراتها وساحاتها التي عاش فيها وعشق في زواياها وقال شعره على أطرافها، لم تخرج منه مفردات ريف سلمية التي جاء منها حيث العنب، والجانرك، وندى الصباح ورطوبة الليل، هو المتأمل حتى الشبع في «رذاذ من شبع الأمل»:

(أحاول ألا أسمع صوتي حين ترتدين
خلخالك وأزدرد الشهقة..
رائحة الكرواسان في «ساروجة» إزار
تعلقين فيه
كل ما أشتهي من الرقص..)

في عناوين خضر مجر محاولة لقراءة الواقع بطريقة مختلفة، ومحاولة لعيش الأماكن واختلافاتها وسيطرةٌ محببة للطبيعة الأم، فخضر عاشقٌ دائم، يحبّ تعريف الأشياء وفق رؤيته الخاصة ويعيد تفكيكها إلى جذورها الأولى ليقولها بصورة جديدة، تراوده الحكمة أحياناً، ولكنّه يهجرها إلى التجريب والتوهان المقصود، ليبقى شاعراً واقعاً في (اللَّبْس).